أدب المقالة

أدب المقالة قديم فى اللغة العربيـة بعد قيام الدولة الإسـلامية ، نشأ مع أدب « الفصول » ثم امتزج بالقصة فاقترن « بالمقامة » وهى على أوجز تعريف مقالة قصصية يلاحظ فيها تجويد الإنشاء .

لـكن « الفصل » فى الحقيقة هو أصل المقـالة الأول فى الآداب العربيـة ، وربما كانت الـكتب العربية عند أول نشأتها فصولا مجموعة على شىء من الصلة فى موضوعها أو بغير صلة بينها على الإطلاق . فإذا فتحت الـكثير منهـا قرأت فصلا فى « الأخـلاق » إلى جانب فصل فى أخبار الشجعان والبلغـاء إلى جانب فصل فى الدهاء والدهاة إلى أشباه ذلك من الموضوعات التى هى أقرب الموضوعات إلى «المقالة» بوضعها الحديث .

وقد كتب اليونان والرومان الرسائل التى نسلـكها فى باب القصة مع قليل من التجوز والتوسيع ، ومنها رسائل أرسطو وفلوطرخس ورسائل سنيكا وبينى ، وتأملات مارك أوريليوس وما جرى مجراها فى الإيجاز وتنوع الموضوع .

ولـكن « الفصل » كما عرفه العرب هو أقدم رائد للمقـالة فى الآداب العالمية ، لأنه ظهر قبل ظهور مقالات « مونتانى » إمام هذا الفن غير مدافع بين الأوربيين ، فقد ظهر هذا الفن لأول مرة فى فرنسا سنة ١٥٧١ ثم ظهر بعد ذلك ببضع عشرة سنة فى كتابات فرنسيس باكون الحـكيم الانجليزى المشهور ، ثم أصبحت المقالة منذ ذلك الحين فناً انجليزيا شائعاً بين قراء الانجليزية مع سبق الفرنسيين إليه .

وقد سمى مونتانى مقالاته بالمحاولات Essay كأنه يعتذر من ترسله فيها بغير تقيد بموضوع واحد أو تعمق فى التفكير ، وكانت المحـاولة فى اصطلاح الفنانين هى معالجة صنع التمثـال من مادة رخوة كالشمع وما إليه قبل صـبه فى قوالب النحاس أو نحته

من الرخام . فأراد مونتانى بمقالاته أن تكون محاولات « رخوة » من هذا القبيل ، وقصرها على الأحاديث المستخفة والتجارب الشخصية التى يتناجى بهـا الإخوان فى ساعات السمر وتزجية الفراغ .

فلما تناول « باكون » الكتابة المقالية أقل فيها من الناحية الشخصية وزاد فيها من الناحية الدراسية فأصبحت مقالاته أقرب إلى التركيز والإدماج منهـا إلى التبسط والفكاهة ، ولقيت مع ذلك رواجا أى رواج .

ثم نشأت الصحافة فاستقرت المقـالة فى مكانها الذى لا غنى عنـه بنوع آخر من أنواع الكتابة الوجيزة ، بعد أن كانت محاولة مترددة بين القبول والإهمال .

وانقسمت مواضيع المقالات على حسب الصحف والمجلات ، فما كان منهـا للتسلية والقراءة العامة فقد التزمت فيه طريقة مونتانى وتابعيه ، وما كان منها للدرس والقراءة الخاصة فقد غلبت عليه صبغة الجد والإتقان ، وقيل فى تعريف النمط الأول أنه أشبه شىء بحديث شخصى تفاجئه على غير انتظار . فهو مزاج من التفتح والحيطة العارضة على مسمع من المترقبين المتطلعين ... وقيل فى تعريف النمط الآخر أنه درس يلاحظ فيه تلخيص المطولات وتقريب المتفرقات ، وقد يبلغ الغاية من التركيز والإدماج .

والذى نراه نحن فى «المقالة» أنها ينبغى أن تكون «مشروع كتاب فى موضوعها لمن يتسع وقته للإجمال ولا يتسع للتفصيل ، فكل مقالة فى موضوع فهى كتاب صغير يشتمل على النواة التى تنبت منها الشجرة لمن شاء الانتظار » .

وقد توخينا هذه الخطة فى مقالات هذا الكتاب ، وجعلناها كمقالات «الفصول» و « المطالعات » و « المراجعـات » وساعات بين الكتب من حيث الموضوع والحيز وأسلوب التناول ، ولكن مقالات هذا الكتاب لا تدخل تحت عنوان من تلك العناوين لأنها كانت على الأكثر أجوبة لأسئلة معينة يوجهها القراء إلى صاحب الكتاب فهى تخالفها فى المناسبة وإن وافقتها فى موضوعها وخطتها وإيثارها الجوانب العـامة على الجوانب الشخصية .

وقد آن لها أن تأخذ مكانها بين تلك المجاميع ، ونرجو أن تكون عناية الأدباء بالسؤال عن موضوعاتها وعناية القـــراء بمطالعتها شفيعاً لإبرازها فى هذه الصفحات بهذا العنوان .

عباس محمود العقاد

---

obeikandl.com